الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية الموسم الجامعي:2021/2020

قسم العلوم الاجتماعية / تخصص: فلسفة المستوى: ثانية ماستر فلسفة عامة

المقياس: فلسفة الدين الأستاذ: عبد الله زين (أ/ محاضر.ب)

المحاضرة 02: مدخل إلى فلسفة الدين/ أصل التدين- موضوع فلسفة الدين

1- أصل التدين:

***تمهيد:**

يمتلك الإنسان على غرار الحيوان دوافع غريزية، إلا أنه لا ينساق وراءها، وإنما يستخدم العقل في تصرفاته، لكنه لا يكفي بمفرده؛ فيحتاج الإنسان إلى الالتزام بضوابط دينية معينة، و هذا ما يعرف بالتديّن، فما المقصود بالتديّن ؟ و كيف نشأ ؟

أ-مفهوم التديّن:

تناولت بعض المعاجم والقواميس مصطلحي الدين والتديّن؛ وقد عرّفت الأول بأنه: « الإيمان والاعتقاد الجازم بوجود ذات إلهية، تستحق العبادة والإذعان لها، ويكون ذلك عن طريق الانقياد والتسليم للنصوص التي تقوم بوصف وتحديد تلك الذات، وتوضيح التشريعات لسلطة الذات العليّة » . أما التديّن، فيقصد به سلوك الإنسان والتزامه بالدين الذي يعتقده، ويعبّر التديّن عن مقدار تمسّك المرء به زيادة ونقصا، وقدر التزامه بتعاليمه كلها أو بعضها. فالدين هو التشريعات، والتديّن هو مقدار الالتزام بها .

ب-نشأة التديّن:

أثارت مشكلة أصل التديّن جدلا بين الفلاسفة والمفكرين؛ بحيث اختلفوا في تفسيرها وانقسموا إلى اتجاهات مختلفة، ويمكن تقسيمها إلى موقفين بارزين هما: موقف يقول

بفطرية التديّن، ويمثّله بعض الفلاسفة مثل: ديكارت، هيجل ، جيمس . وموقف يرى أن التدين ظاهرة مكتسبة ترتبط في ظهورها بعوامل معينة (اجتماعية، مادية واقتصادية)، ويمثل هذا الموقف بعض الفلاسفة مثل: ايميل دوركايم، وكارل ماركس.

يرى بعض أصحاب الاتجاه الأول، أن التديّن فطرة في النفس البشرية؛ وقد أجمعوا على أنه لا توجد جماعة بشرية ظهرت وعاشت ثم مضت، دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون، والتديّن عندهم هو عمل لا شعوري .

بينما يرى البعض الآخر، من أصحاب هذا الاتجاه، أن الإيمان أو العقيدة من عمل العقل والإرادة معا؛ بمعنى أن التديّن فطرة عقلية فطر الله الناس عليها، يقول"هيجل ": « إن الفكر هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان...ومن العجيب أن نباعد بين الفكر والوجدان أو الشعور، حتى لنجعلهما ضدين؛ بحيث نعتقد أن الفكر يلوث الشعور،- ولا سيما الشعور الديني- ويشوهه بل ويقضي عليه » .

أما الاتجاه الثاني، فقد اعتبر التديّن ظاهرة مكتسبة، تنشأ بفعل عوامل معينة، منها ما هي اجتماعية ومنها ما هي مادية اقتصادية .

ترى النظرية الاجتماعية بزعامة الفيلسوف الفرنسي " ايميل دوركايم "[1]، أن الدين ظاهرة اجتماعية، والتديّن ينشأ عن ظروف وعوامل اجتماعية، وتختلف هذه الظروف باختلاف المجتمعات والعصور، وقد حاولت هذه النظرية تبرير موقفها بجملة من الأدلة منها:

-التجانس المطلق والاطراد الدائم في الظواهر الدينية عامة، فلا يوجد دين إلا وقد أخذ عن سلفه من الأديان (ارتباط المسيحية باليهودية) .

-استقلال الحقائق الدينية و موضوعيتها باعتبارها مستقلة إلى حد كبير عن الأفراد، قائمة بذاتها ومن ثم فهي موضوعية تتبع الضمير الجمعي للمجتمع .

-قسرية الحقائق الدينية؛ فهي حقائق آمرة مسيطرة تضع التكاليف، وهي في جميع صورها عالية آمرة، لأنها تنبثق من المجموع وتعود إليه .

---

[1]- ايميل دوركايم (David Emile Durkheim) " 1858-1917 م " فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجا مستقلا، يقوم على النظرية والتجريب في آن معا، له عدة مؤلفات منها: قواعد المنهج السوسيولوجي، في تقسيم العمل الاجتماعي، الأشكال الأولية للحياة الدينية .

أما النظرية الثانية ضمن هذا الاتجاه، فهي النظرية الماركسية، التي ترى أن العامل المادي الاقتصادي هو الأساس الذي يحدد مختلف أشكال الوعي الإنساني، ومنها الوعي الديني أو التديّن، فهذا الأخير - حسب الماركسية- انعكاس لعوامل وظروف مادية اقتصادية سائدة في المجتمع، فالدين في نظر " كارل ماركس "[2] يتأثر بالعوامل والبنى التحتية، والمتمثلة في العوامل المادية والاقتصادية، وهذه العوامل متغيرة في حياة البشر، وأي تغير في ذلك يؤدي إلى تغير في المعتقدات الدينية لدى الناس، كما يرى " ماركس " أن الدين ناتج عن استغراب الإنسان وابتعاده عن ذاته الأصلية بسبب الظروف الاقتصادية والتفاوت الطبقي؛ بمعنى أن الدين ينشأ عندما يشعر الإنسان بعدميته وتبعيته وقصوره وعدم اكتفائه بذاته، فيبحث عن العلة الكافية للوجود والمكتفية بذاتها، وهنا يضع الإنسان نفسه أمام المطلق اللامحدود، وبناءا على ذلك، يظل الدين مكتسيا أهميته، من كونه يمثل المجال المعرفي القادر على إرضاء النزوع الروحي في الإنسان، عندما لا يكتفي بالمتناهي ويسعى نحو اللامتناهي .

كما يرى " ماركس " أن الدين عبارة عن أيديولوجيا الطبقة الحاكمة، حيث يقدم للفقراء توصيات لحفظ النسيج الاجتماعي، ويقرر أن النظام السياسي قدر محتوم ولا ينبغي مواجهته، ووظيفة الدين عند " ماركس" هي تفسير العالم ومنح المشروعية للوضع القائم ومواساة المحرومين . ومن هنا فهو يتنبأ بزوال الدين تدريجيا مع زيادة الوعي الطبقي ومعرفة الإنسان لذاته وللعالم .

الخلاصة ترى أن الدين فطرة فطر الله الناس، فهم منذ فجر التاريخ بإرادتهم وعقولهم يعتقدون في دين ما . اختلفت مظاهر العبادة وأسماء المعبودات، لكنهم في النهاية يؤمنون بعقيدة ما حول أصل الخلق ونشأة الكون وما وراء هذه الظواهر الطبيعية . وهذه الفطرة ليست لا شعورية بقدر ما هي شعورية واعية، حيث أن الإنسان هو الكائن الوحيد المتديّن في هذا الوجود، وقد عبّر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربّكم، قالوا بلى شهدنا ». **الأعراف 172** .

---

[2]- كارل ماركس (Karl Marx) " 1818-1883 م "، مفكر وفيلسوف ألماني، يعتبر المنظّر الأول للاشتراكية العلمية، والمنظم الأساسي للحركة العمالية العالمية في زمانه، ترك عدة مؤلفات أبرزها: رأس المال، الأيديولوجيا الألمانية، بيان الحزب الشيوعي، نقد الاقتصاد السياسي، بؤس الفلسفة ...الخ .

2-موضوع فلسفة الدين:

إذا كان لكل حقل معرفي موضوع يتناوله، ويشكل مجاله، فإن ذلك ينطبق على أحد فروع الفلسفة العامة، وهو " فلسفة الدين "، فما موضوع فلسفة الدين ؟

إذا كانت فلسفة الدين تعني التأمل الفلسفي حول الدين بصفة عامة، بهدف فحص الموضوعات الدينية، وبحث طبائع الاعتقاد بطرق عقلانية و برهانية خالصة دون تحيّز مسبق، فما ذا يتأمل فيلسوف الدين ؟

يتأمل فيلسوف الدين، الدين بصفة عامة (الدين من حيث هو كذلك)، وكذا الموضوعات الدينية؛ وهي التي ترجع إلى الدين، والذي يعني من بين ما يعنيه: الطاعة والالتزام بأوامر المعبود؛ وهو الله " الإله كيفما كان " . إذا كانت فلسفة الدين تدرس الموضوعات الدينية، فما هي هاته الموضوعات ؟

تتمثل هذه الموضوعات فيما يلي: الألوهية – الوحي والنبوة – المعجزات – العبادات- مشكلة الشر – الروح والحياة الآخرة .

أ-الألوهية:

تفاوتت الأديان والفلسفات في المعاني التي فهمت بها الألوهية، ويمكن القول أن للألوهية معان متعددة بتعدد الأديان والفلسفات، منها:

-المعنى الوجودي: وحسبه، يفهم الإنسان الألوهية بوصفها أصل الوجود ومنبعه، وهي الوجود الحق، والأول، والسرمدي...الخ .

يضاف إلى هذا المعنى للألوهية، معان أخرى كالمعنى القانوني والسياسي، والمعنى الأخلاقي، والمعنى الاجتماعي، والمعنى المنطقي، لكن لا يتسع المجال للتفصيل فيها .

كما تجدر الإشارة إلى أن الفلاسفة ذهبوا مذاهب شتى في موقفهم من طبيعة الألوهية

(إثبات – إنكار / وحدة – تعدّد) .

ب-الوحي والنبوة:

تتأسس معظم الأديان عبر كتاب مقدّس، وهذا الكتاب هو الوحي الإلهي (Revelation)، في شكله المقروء، أو المسموع في المراحل الشفهية لبعض الكتب المقدسة، وهذه السمة تشترك فيها معظم الأديان .

وعلى الرغم من هذه السمة المشتركة، توجد اختلافات بين الأديان في طبيعة الوحي ووسائله، كما توجد أشكال متنوعة للوحي، منها أسلوب الوحي في التقليد اليهودي- المسيحي- الإسلامي، ويعدّ بالنسبة إلينا، أكثر فهما وإدراكا: إله شخصي يتصل بأشخاص يختارهم ليكونوا الناطقين بكلامه، والحاملين لرسالته، ومنها أسلوب الوحي الرئيسي في الفيدية والبرهمانية في الهند .

ج-المعجزات:

بداية يمكن تعريف المعجزة، بأنها " حادثة توجد ضمن الخبرة الإنسانية؛ التي لاحظت حتى الآن، أن عمليات الطبيعة تتعطل، أو تتوقف مؤقتا، مثل الحوادث التي تنسب عادة إلى تدخل قوة إلهية . وتعد المعجزات، في اليهودية، والمسيحية ، والإسلام، علامات على قدرة الله الشاملة، ودلائل على صحة الرسالات وصدق الرسل والأنبياء، فيما جاؤوا به من وحي .

ولقد تم تسجيل حوادث عدة في العهد القديم بوصفها معجزات، وأصبحت معجزتان بصفة خاصة، من بين تلك المعجزات، رموزا لقرارات التدخل الإلهي في التاريخ . ويسجل العهد الجديد معجزات كثيرة، مثل أفعال الشفاء التي مارسها المسيح .

كما سجل القرآن الكريم المعجزات المادية للأنبياء السابقين، مثل نوح، وإبراهيم، وموسى، ويونس، وصالح، ومريم، و زكريا، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلّم، الذي كانت معجزته من نوع مختلف، هي القرآن الكريم، ومن ثم، فقد اختلفت معه طبيعة المعجزة .

أما بخصوص مواقف الفلاسفة من المعجزات، فقد كانت متباينة وبالغة التفاوت، فعلى سبيل المثال، نجد الفلاسفة المحدثين، على اختلاف تياراتهم، يعتقدون اعتقادات متناقضة تماما، ويأخذ كل منهم موقفا مختلفا عن الآخر؛ وعلى سبيل المثال نجد " ليبنتز " آمن بالمعجزات وبرّرها، بينما نجد " دفيد هيوم " و " إيمانويل كانط " و " أرنست رينان "، قد أنكروها كلية .

د-العبادات:

تمثل العبادات إحدى المسائل الدينية التي تناولها فلاسفة الدين، وقد تراوحت مواقفهم من ماهية العبادات ووظيفتها في الأديان بين القبول والرفض، وإعادة التأويل العقلي، تبعا لرؤيتهم لطبيعة العالم، وحقيقة الألوهية، وطبيعة العلاقة بين الإنسان والله، وبين الطبيعة وما بعد الطبيعة، وتبعا لتجربتهم الشخصية، وظروف العصر، والمقاصد الكلية التي تتطلع إليها أنساقهم الفلسفية .

ومن أمثلة المواقف الفلسفية التي تناولت موضوع العبادات، موقف الفيلسوف الإنجليزي " دفيد هيوم " الذي كان ناقدا للعبادات، إذ يظن أن التصور المضخم للإله يؤدي إلى تضاؤل الإنسان أمام نفسه، ومن ثم تضاؤله أمام الإله، الأمر الذي ينتج عنه تحديد العلاقة بين الإنسان والإله في شكل علاقة خوف، وخضوع؛ أي علاقة عبد بسيّد. وقد تبلورت هذه العلاقة، وتم التعبير عنها من خلال الطقوس والشعائر، وليس من خلال الالتزام الأخلاقي، حيث يكون سبيل الخلاص في الالتزام الصوري المظهري بالعبادات، وليس في ممارسة الأخلاق والفضيلة .

أما " كانط " فقد قام باستبعاد الطقوس والشعائر من دين العقل؛ لأنه مادام الدين العقلي المحض مؤسسا على الأخلاق ومنتهيا إليها، فإن " كانط " لا يرضى بالطقوس، والشعائر والعبادات الموجودة في الأديان التاريخية بديلا للالتزام الأخلاقي، ويجعل العبادة الحقيقية كامنة في السلوك الأخلاقي القويم النابع من الإرادة الحرة، والتشريع الذاتي للعقل العملي المحض .

هـ-مشكلة الشر:

لا يزال ملف الشر وعالم الشيطان، بغرائبه، وقصصه الأسطورية، مفتوحا منذ اللحظات الأولى لخلق الإنسان، وعلى الرغم من تطور الأديان، وتقدم العلم، وتطور الفكر الفلسفي، لا يزال الإنسان متخبطا على مدى التاريخ، وإلى اللحظة الحاضرة، في تفسير الشر، وعلاقته بعالم الشيطان المثير، وفي كيفية التعامل معه. وبين مؤيد ومعارض، يستمر الخلاف والجدال، ويظل البحث مفتوحا في قضية ظلت تؤرق كثيرا من الناس، كما تؤرق كل من يبحث عن الحقيقة .

ومثلما اختلف الناس حول الشيطان، اختلفوا أيضا حول مشكلة الشر، واستعصى على الكثير من الباحثين فهم المقاصد الإلهية، وتنوعت مواقف الفلاسفة من مشكلة الشر في العالم، تبعا لمواقفهم العامة من الدين، وطبيعة رؤاهم الأنطولوجية للعالم، كما

تنوعت مواقف الأديان من الشيطان والشر، تبعا لمواقفها العامة من الألوهية، وطبيعة رؤيتها للعالم والحياة؛ فهناك من الأديان الوضعية من تفسر وجود الشر في العالم عن طريق الاعتقاد في وجود إله للشر، أو أصل منفصل له في الوجود (أصل قديم لم يخلقه الله، مثل: المادة أو الظلام)، أو كائن كوني أسطوري مثل: الأفعى، أو التنين، يدخل في صراع مع إله الخير، مثل: الفيدية، والهندوسية، والمجوسية، والزرادشتية بعد تحريفها، والمانوية .

وهناك من الأديان من يفسر وجود الشر في العالم عن طريق الاعتقاد في وجود شيطان، أو شياطين، مثل: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، مع اختلاف بينها في طبيعة دور الشيطان، وكيفية التغلب عليه، فضلا عن وجود عناصر أخرى غير الشيطان لتفسير الشر في الإسلام؛ ذلك الدين الذي استطاع أن يتخلص من أساطير القدماء، ومن أوهام البشر، ومن مغالطات بعض الفلاسفة المتأثرين بالديانات الوضعية، أو المحرفة. وعلى الرغم من أن الشيطان مسؤول عن جزء من الشر في العالم، يتحمل الإنسان- عندما يظل الطريق- جزءا آخر .

و-الروح والحياة الآخرة:

تعتبر قضية الروح من القضايا التي حيرت العقول، وتباينت حول طبيعتها استنباطات الفلاسفة، وتوقف عن تحديد جوهرها الدين؛ فماهيتها لا تدركها الحواس، ولا يصل إليها العقل؛ المجبول على الإدراك في حدود الزمان والمكان، أما الروح فليست كذلك، إنها لا مادية، وغير فيزيائية، إنها في مقابل الجسد بغرائزه الحيوانية، وفي مقابل الطبيعة بما فيها من ضرورة، ولذا لا تتحلّل؛ ومن ثم لا تفنى .

تكاد تكون عقيدة النفس وخلودها لازمة أساسية في كلّ الأديان؛ حيث اهتمت معظم الأديان بحياة النفس بعد الموت، بشكل أو بآخر؛ بعثا وقيامة للروح والجسد معا، بعثا للروح فحسب، بعثا للروح والجسد النوراني دون الترابي، تناسخا... كما أظهر الفلاسفة اهتماما ملحوظا بذلك في كل العصور . ومنهم من قال بوجودها، وتميزها عن البدن، ومنهم من قال بعدم وجودها أصلا، ومنهم من قال بخلودها؛ إما كروح فردية تعود مع الجسد، وإما قصر العودة على الروح دون الجسد، أو زعم اتحادها بالروح الكلية؛ روح الله تعالى. ومن الفلاسفة من قال بوجود نفس مادية تفنى بفناء الجسد .

اختلف الفلاسفة حول الروح في كل العصور، إثباتا ونفيا، وتعددت مواقف المثبتين حول مفهومها، وماهيتها؛ فتارة هي النفس؛ مبدأ الحركة وسرّها عند طاليس، وتارة هي العقل، ولها طبيعة مادية خالصة، كما تصورها ديمقريطس، وتارة هي جوهر بسيط خالد متميّز كلية عن الجسم عند سقراط وأفلاطون، بينما تصورها أرسطو على أنها النفس مبدأ الحياة، بوصفها كمالا أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، وهي ما به نحيا، ونحس، وننتقل في المكان، ونعقل أولا .

وفي العصور الحديثة، عدّها ديكارت الجوهر المفكر المتميّز عن البدن الجوهر المادي، وهي بسيطة لا تنقسم، ومن ثم لا تفنى بعد الموت، بينما الجوهر المادي قابل للانقسام . أما توماس هوبز، فقد رفض الروح كلية، وعدّها مفهوما لا معقولا ومتناقضا، وقال، في المقابل، بجوهر مادي فحسب، وعدّ العالم كلّه ماديا، أما الفكر فليس إلا حركة لجوهر مادي هو المخ .

ويتصور سبينوزا الإنسان على أنه تعيّن للجوهر، والجوهر له ماهيتان: الفكر والامتداد، والإنسان تعيّنا لهذا الجوهر، له ماهيتان: الفكر والامتداد؛ أي له جانبان، أو بالتعبير الدارج، (عملة لها وجهان)، ورأى أن العقل البشري لا يمكن فناؤه بصورة مطلقة، لكنه مترنح فيما يتعلق بالخلود الفردي .

واستمرت آراء الفلاسفة تتنازع دون حسم، فحاول روسو إنقاذ الإيمان، كما حاول كانط، ومن بعده هيجل (1770-1831 م)، كل على طريقته .

وأخيرا، يمكن القول أنه على الرغم من كون الموضوعات السالفة من صميم مجال فلسفة الدين، إلا أنها تعتبر موضوعات تقليدية عفى عنها الزمن، فالرهان الحقيقي اليوم، يتمثل في كيفية التعاطي مع الدين- كمعطى مقدس-؛ فالمجتمعات عامة، والإسلامية على وجه الخصوص تعاني من سطوة الخطاب الديني المتعصب والمتطرف، مما سمح للغرب الأوروبي والأمريكي، استثمار هذا الخطاب لتحقيق مصالحه، ضد الإسلام والمسلمين، فما نشهده اليوم في بعض الأقطار العربية الإسلامية، خير شاهد على ذلك (العراق، اليمن، سوريا، ليبيا)، وعليه نؤكد على ضرورة روح الاعتدال والفكر التنويري، في التعاطي مع الدين، حتى يؤدي وظيفته على أحسن ما يرام .

ملاحظة هامة:(أنظر: القراءات المعاصرة للدين وللخطاب الديني في الفكر العربي المعاصر) .